الهديّة الأعظم

إعداد: رحيل علّوه
رسوم: حسين أسفند

لَفَظَ المِصباحُ أنفاسَه الأخيرة آذناً لفاطمة عليها السلام بالهجوع، بالهجوع، فتمدّدت على حصير من ليفٍ خَشِنٍ نافضةً عنها تعبَ النّهار. أجهدتها أعباءُ المنزل وهي الرقيقةُ التي ما غادرتها الطفولة إلى أجَلٍ قريب.

لم تكنْ فاطمة لتشكو يوماً أو تتذمّر، كانت خدمة علي عليه السلام -الزوج الشفيق – وأولادها حسن، حسين، وزينب من أحبّ الأعمال إلى قلبها، ما توانت لحظةً عن السّهر والرّعاية حتى نَحلَت وبان الجهد والتّعب في نظراتها الوادعة.

اعتصر قلب علي ألماً وهو ينظر إلى بضعة النبي صلى الله عليه وآله وروحه، وقد أدمى يديها الرّقيقتين قطب الرّحى وهي تطحن الحنطة لتعدّ أقراصاً من الخبز لأطفالها، وأهاج حزنه أثر قربة الماء التي تستقي بها من البئر وقد تركت آثاراً عميقة على كاهلها.

أيامٌ تفصلها عن وضع مولودها وهي ما برحت تُباشر بنفسها شؤون البيت واحتياجاته مع ما في ذلك من جهد مُضنٍ حتى أصابها من ذلك ضررٌ شديد. علمت من الإمام علي عليه السلام بمجيء بعض الرقيق إلى النبي صلى الله عليه وآله فاتّفقا على أن تلتمس منه خادمة تكفيها ما هي فيه من عناء وتعينها حيث يكون علي غائباً عنها.

عن الإمام الصادق عليه السلام «مَنْ سبَّح تسبيحَ فاطمة (بعد الصلاة) المكتوبة من قبل أن يبسط رجليه أَوْجَبَ اللهُ لهُ الجنَّة».

أقبلت فاطمة تمشي على استحياء إلى أن بلغت منزل أبيها لتجد عنده جمعاً من المسلمين يتحادثون فقفلت عائدة أدراجها وما ذكرت لأبيها شيئاً عن سبب قدومها إليه. لكن النبي صلى الله عليه وآله بقلبه الأبوي النبويّ علم أنّ مهجة قلبه قدمت لحاجة في نفسها وقد منعها أدبها من البوح بما لديها فعاجلها بعد تفرّق الجمع حثيث الخطى إلى بيتها – وقد كان دنا المساء – مستوضحاً عن علّة مجيئها إليه، لكن الحياء منعها ثانية عن الافصاح حتى استنقذها علي عليه السلام مبيّناً للنبي صلى الله عليه وآله حال ابنته وما آلت إليه حالها وهي الغضّة الطريّة التي يعزُّ على أبيها أن تتألّم.

ولأنّ هدايا الدنيا لا تليق بقدس فاطمة كانت الهديّة الأعظم... هديّة من عالم الأذكار.

«هبة من عالم الملك إلى درّة الملكوت فاطمة بنت محمد صلوات الله عليهم»،

تكبيرٌ وتحميدٌ وتسبيحٌ يخرق حجب النور، ويستنزل به فيض الرّحمات.

يا فاطمة كبّري اللهَ تعالى أربعاً وثلاثين مرّة، واحمديه وسبّحيه ثلاثاً وثلاثين عند كلّ مضجع وبعد كلّ فريضة فإنّه والله خيرٌ لك من الخادم وخيرٌ لك ممّا طلعت عليه الشمس أو غربت.

«رضيت عن الله ورسوله» قالتها فاطمة عليها السلام ثلاثاً وقد أشرقت في محيّاها ابتسامة لا يشكّ من يراها أنّها ابتسامة المصطفى صلى الله عليه وآله على ثغر فاطمة عليها السلام.